مجلة أنثروبولوجية الأديان المجلد 18 العدد02 2022/06/05

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المرجعية الدينية الفقهية في مجتمع بلاد المغرب الإسلامي من خلال إسهام الرحلة العلمية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/13و14م

Juristic religious reference in the society of the Islamic Maghreb through the contribution of the scientific journey during the seventh and eighth centuries AH / 13 and 14 CE

سكاكو مريم[1] *

[1]جامعة سعيدة–د.مولاي الطاهر

Meriem.sekkakou@univ-saida.dz

تاريخ الاستلام: 2021/02/23 تاريخ القبول: 2021/05/02

ملخص:

ساهمت الرحلات التي قام بها المغاربة والأندلسيون إلى المشرق الإسلامي في نقل وحفظ تاريخ وتراث المناطق التي مروا بها بفضل ما دونوه من مشاهدات وأحداث،وكان لها دور كبير في تغذية الحياة الفكرية خاصة الجوانب المذهبية سيما إدخال المذهب المالكي إلى المنطقة وما تعلق به من مؤلفات عكف علماء هذا القطر على تدارسها وتأليف الشروح حولها في مقدمتها مختصر خليل ومختصر ابن الحاجب في الفقه المالكي،ونسعى من خلال هذا المقال إلى تسليط الضوء على أهمية الرحلات العلمية في هذا الجانب من خلال استمراريتها طوال العصر الوسيط وخلال القرنين السابع والتاسع الهجريين /13و14م حيث نبغ عدد من العلماء في الفقه المالكي درسا وتأليفا.

الكلمات المفتاحية:الرحلة العلمية;المشرق الإسلامي ;المغرب الإسلامي;المرجعية الفقهية .

Abstract:

The trips made by Maghrebians and Andalusians to the Islamic East contributed to the transmission and preservation of the history and heritage of the regions they passed through thanks to the observations and events they recorded.And it had a great role in nurturing intellectual life, especially the doctrinal aspects, especially the introduction of the Maliki jurisprudence of thought into the region and the literature attached to it that the savants of this

* **المؤلف المرسل**: سكاكو مريم، **الايميل**: meriem.sekkakou@univ-saida.dz

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

country worked on studying and composing explanations about it, in the forefront of which is Mukhtasar Khalil and Mukhtasar Ibn al-Hajeb in Maliki jurisprudence.
We seek through this article to shed light on the importance of scientific journeys in this aspect through their continuity throughout the medieval era and during the seventh and ninth centuries AH / 13 and 14 CE, when a number of savants in Maliki jurisprudence.

Key words: the scientific journey; the Islamic east; the Islamic Maghreb; the jurisprudential reference.

مقدمة

عرف العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط عدة رحلات بين جناحيه شرقا وغربا ،ومن هذا المنطلق تعتبر الرحلة من أهم مصادر التأريخ للمجتمعات والشعوب في مختلف الجوانب السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والفنية ،وهي مصدر ثري من مصادر تاريخ كثير من البلدان فهي أوفى المصادر وأوثقها وتحتوي على معلومات ذات قيمة كبيرة لا نجدها في كتب التاريخ العام وتمتاز بالدقة والأمانة لأنها صادرة عن شخص عاين ما وصفه دون واسطة (الناجي لمين، 2016، صفحة 23)ورغم ما انعقد لهذا الموضوع من ندوات وملتقيات وما بذلت له من كتب ومؤلفات لازال موضوع الرحلة من المواضيع المتجددة التي تكشف عن الجديد في كل مرة،فالرحلات بالنسبة للباحث هي المعين لا ينضب يستقي منه المعلومات وتفاصيل الأحداث.

وفي بلاد المغرب الإسلامي كانت الرّحلة في طلب العلم من المسائل المحمودة ، باعتبارها عاملا هاما في تمتين العلاقات والروابط مع أهل المغرب خاصّة والمشرق والأندلس، إذ تضاعف الاتصال عن طريق النشاط الدّبلوماسي وتبادل الرسائل الإخوانية وعن طريق الّرحلة العلمية والحج إلى البقاع المقدسة وزيارة بيت المقدس(بودواية و بكاي، 2010، صفحة 1)، فغالبا ما تتبع رحلة الحج الرحلة في طلب العلم، فالحج من أقوى البواعث التي حركت الرحالة المغاربة والأندلسيين إلى جانب حرصهم على طلب العلم منمنابعه الأصلية مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن المراكز الأخرى في الدولة الإسلامية كبغداد ودمشق ومصر وغيرها(نواب،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1996، صفحة 71)؛وقد تعددت تلك المراكز العلمية بفضل انتشار العلماء، وأسهمت بدورها في النشاط العلمي على أيدي أولئك العلماء الموجودين بها أو المتنقلين إليها الحريصين على الاستزادة من العلم ونشره(نواب، 1996، صفحة 46).

فاتسمت الثقافة والعلوم في البلاد الإسلامية بسمات التوحيد في الأسس والمقومات والمشاركة في معظم المظاهر وهو ما أدى إلى وجود حرية في التنقل من مكان إلى آخر في مشرق العالم الإسلامي ومغربه فلا حدود فاصلة ولا رقابة على تنقلات من يريد ذلك (العتابي، 2016، صفحة 247) وفي هذا السياق نتساءل عن آثار تلك الرحلات على الحركة الفكرية وبصفة خاصة الجوانب الفقهية في بلاد المغرب سيما المذهب المالكي الذي كتب له الانتشار والرسوخ في المغرب الإسلامي عموما والمغرب الأوسط بوجه خاص لجملة من العوامل من بينها ما نقله المغاربة من رحلاتهم إلى المشرق علما وعملا.

1-مكانة الرحلة في التكوين العلمي للطلبة والعلماء:

إن طالب العلم إذا وصل إلى مرتبة علمية تؤهله لأن يكون فقيها لا تعني انقطاع صلته بغيره من فقهاء عصره، بل إن ذلك سبب لوجود تلك الصلة أحيانا، إذ واجه بعض الفقهاء مواقف احتاجوا فيها إلى الاتصال بغيرهم من الفقهاء، وقد تم ذلك الاتصال بوسيلتين رئيسيتين هما المراسلة والتنقل بين المدن(المشهداني، 2003، صفحة 16)،أي بين حواضر العلم التي اشتهرت آنذاك ولم يدخروا في ذلك جهدا والتاريخ الوسيط زاخر بالعديد من أسماء العلماء الذين ارتحلوا في مختلف الأصقاع طلبا للعلم أو نشرا له .

فقد هيأ تنقل الفقهاء بين المدن وسيلة مباشرة للاتصال فيما بينهم مما أتاح أمامهم فرصة مناسبة للتواصل العلمي، فوجب حسن اختيار الفقهاء للمدن التي يستقرون فيها، حيث وجدوا في المدن الكبيرة مراكز استقطاب لهم، وذلك لمصلحة العلم الذي يحملونه من ناحية نشره والاستفادة منه، أو تطويره بالاختلاط مع علماء آخرين وحتى الاستفادة منه بنيل وظائف لدى الدولة(المشهداني، 2003، صفحة 56).

ولم تقف أمام طلبة العلم وتبليغه حدود، خاصة أمام إمكانية التنقل بحرية بين مختلف حواضر دول المغرب والأندلس وترحيب الشيوخ بكل طالب علم وحرية الطلبة في اختيار الشيوخ والانتقال من شيخ إلى آخر

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

لاستكمال العلم(بوشامة، 1991، الصفحات 465-467)، وعن فضل الرحلة يقول عبد الرحمن بن خلدون: " الرحلة في طلب العلم ولقاء المشيخة مزيد كمال في التعليم والسبب في ذلك أن البشر يأخذون معارفهم وأخلاقهم وما ينتحلونه به من المذاهب والفضائل: تارة علما وتعليما والقاءا، وتارة محاكاة وتلقينا بالمشورة إلا أن حصول الملكات عن المباشرة والتلقين أشد استحكاما وأقوى رسوخا، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها... "(خلدون ع.، 2007، صفحة 591).

ما يعني أن الطالب كلما زاد عدد الشيوخ الذين يلتقي بهم تترسخ المعارف في ذهنه أكثر، وتسهم بقدر كبير في نضوج فكره، وتكوين ملكة علمية ليكون تكوينه سليما وصلبا ومن العوامل المساعدة على الرّحلة ما يلي:

-إمكانية التنقل بين مختلف بلدان المغرب والأندلس والمشرق بحرّية.

- حسن استقبال طلبة العلم، وتوفير أماكن الإقامة لهم وبساطة لوائح الالتحاق بالمؤسسات التعليمية والثقافية.
- إصرار الطلبة على تحصيل العلم وحرّيتهم في اختيار الشيوخ والانتقال من شيخ لأخر لاستكمال التعليم، وفي نفس الوقت ترحيب الشيوخ بهم(بوشامة، 1991، صفحة 467).

وإلى جانب طلب العلم ،كان خروج الرّحالة الأندلسيين والمغاربة أيضا، وبدرجة أكبر للحجّ وزيارة الأماكن المقدسة، فاشتهروا وداع صيتهم بما حققوا من علم وقاموا به من رحلات فتأهلوا لشغل المناصب العلمية والدينية وتصدروا عند عودتهم إلى مواطنهم للتدريس وتولي القضاء، أو الكتابة أو... لدى بعض أمراء المغرب والأندلس.

فالحج من أقوى الوشائج التي ربطت بين المشرق والمغرب ويعدّ من أقوى البواعث على الرّحلة، ومن هنا كانت رحلة المغاربة إلى المشرق على وجه العموم، أكثر من رحلة المشارقة إلى المغرب فالمشرق زيادة على كون مركز الحجّ فيه، فإن مدن العلم الأولى توجد فيه أيضا(زيادة، 1962، صفحة 167).

وقد اشتهرت عند المسلمين الرّحلات الحجازية ولسيما من المغرب والأندلس إلى الحجاز، وبعد الحجّ يسيح المسلم في الأرض يمشي في مناكبها كما فعل ابن جبير والعبدري وابن بطوطة وغيرهم وكان نتاج ما دونه أولئك الرحالة ظهور ما يسمّى ب"أدب الرحلات"(بوشامة، 1991، صفحة 467).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

وعلى العموم، فإن العلماء لم يعرفوا الاستقرار بمكان معين بل جابوا الأقطار العديدة وقصدوا المراكز الثقافية التي كانت تغص بالعلماء، فكان العصر عصر حركة وتجوال ورحلة ونشاط فكري، وهذا ما جعل الرّحلة تكاد تكون شرطا من شروط التحصيل، وبلوغ درجة عليا في المعرفة والتفوق، فكتب التراجم تكتفي أحيانا في التعريف بالعلماء بعبارة "وله رحلة، أو رحل في طلب العلم" للإظهار منزلته العلمية ودرجته الفكرية، ومن هنا كان العالم يرحل لرواية حديث أو لقاء عالم أو التعرف على مناهج جديدة أو الحصول على كتب يرغب في الإطلاع عليها...(الشاهدي، 1991، صفحة 96).

فالتاريخ يسجل عددا هائلا من تلك الرحلات على اختلاف وجهاتها ومقاصدها وفي هذا يقول أبو العباس المقري: "اعلم أن حصر أهل الارتحال لا يمكن بوجه ولا بحال ولا يعلم ذلك إلا علام الغيوب شديد المحال ..."(المقري، 1988، صفحة 5) في إشارة إلى من رحل من الأندلسيين إلى بلاد المشرق ،وباعتبار المغرب إقليما واحدا في هذه الفترة حيث شمل قواعد الأندلس وبلدان المغرب الكبير وبلاد السودان فيلاحظ ولع المغاربة بالرحلة إلى المشرق ورسموا بذلك صورة لعالم إسلامي واحد لا فرق بين مشرقه ومغربه ونقلوا مختلف الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وشخصيات أعلام قد تكون من الهند أو السند أو الصين إلى قلب المدن الأندلسية أو الحواضر المغربية أو حتى تخوم بلاد السودان (التازي، 2005، صفحة 25)ونذكر من أولئك العلماء على سبيل المثال لا الحصر:

-يحي بن يحي الليثي(ت234هـ/848م) راوي كتاب الموطأ عن الإمام مالك وكان رواها بالأندلس عن زياد بن عبد الرحمن اللخمي المعروف بشبطون ثم ارتحل إلى المشرق وهو ابن ثمان وعشرين وسمع من سفيان بن عيينة(المقري، 1988، الصفحات 9-12).

-**إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام بن عيشون المطماطي التنسي** : نشأ بمسقط رأسه مدينة تنس وأخذ عن مشايخها ثم انتقل إلى مدن: مليانة وشلف والجزائر وبجاية، ثم رحل إلى المشرق فزار مصر والشام والحجاز، وبعد عودته إلى المغرب استقر بتلمسان يدرس بها وبها توفي سنة 680هـ/1281م ، له شرح كبير على كتاب تلقين المبتدئ وتذكرة المنتهي للقاضي أبي محمد عبد الوهاب بن نصر البغدادي في عشرة أسفار، ضاع في حصار تلمسان(الخطيب، 2008، صفحة 151).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

-**أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد المعروف ب ابن بطوطة** : كانت رحلته الى المشرق عام 725م وحج عام 726م،دون رحلته في كتابه: تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار،توفي 779م(التازي، 2005، صفحة 138).

– أبو زيد عبد الرحمان وأبو موسى عيسى بن محمد بن عبد الله:عرفا بابني الإمام التنسيان البرشكيان التلمسانيان أكبرهما أبو زيد عبد الرحمان،فرا من مدينتهما برشك بعد مقتل والدهما صوب تونس آخر المائة السابعة للهجرة، فأخذا العلم عن تلامذة ابن زيتون وأبي عبد الله بن شعيب الدكالي ، نظمهما السلطان أبو حمو موسى الأول في مجلسه وخصهما بالفتوى والشورى ،وفي سنة 720هـ/1320م رحلا إلى المشرق لأداء فريضة الحج(فرحون، 2004، صفحة 429).

توفي أبو زيد عبد الرحمن سنة 743هـ/1342م،بينما توفي أبو موسى عيسى سنة 749هـ/1348م متأثرا بالطاعون بلغا منزلة رفيعة من العلم والحظوة بين العلماء والحكام وصفهما لسان الدين بن الخطيب ب:"علما تلمسان الشامخان وعالماها الراسخان(خلدون ي.، 2007، صفحة 207).

-**أبو عبد الله محمد الآبلي**: هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم العبدري الآبلي التلمساني،ولد بتلمسان سنة 681هـ/1282م أصله أندلسي من مدينة ابلة (AVILA)،اعتنى به جدّه لأمه القاضي محمد بن غلبون في غياب والده الذي كان ضمن تنقلات الجيش، هذه الرعاية سمحت لمحمد أن ينشا ميّالا للعلم مخالفا بذلك اتجاه أبيه وأعمامه الذين احترفوا الجندية،أخذ عن فقهاء تلمسان كابني الإمام و أبي الحسن التنسي ونبغ في الفلسفة و المنطق و الرياضيات وسائر العلوم العقلية، ارتحل نحو المشرق آخر المائة السابعة و دخل مصر و الشّام والعراق وأخذ عن العلماء الذين التقى بهم(خلدون ي.، 2007، صفحة 120).

– أبو عبد الله بن مرزوق الخطيب (ت 781هـ/1379م): هو أبو عبد لله محمد بن أحمد بن مرزوق ، يعرف بالخطيب و الجد ، ولد سنة 711هـ/1311م بتلمسان، و بها درس مختلف العلوم على مشيختها كابني الإمام والآبلي وغيرهم وعلى عادة ، وعلى عادة أهل العصر رحل في طلب العلم فكانت وجهته الأولى هي بجاية أين جلس إلى أبي علي ناصر الدين المشدالي و منها إلى تونس ثمّ إرتحل إلى المشرق لأداء فريضة الحج و بقي مترددا بين حواضرها للدّرس و التّحصيل ، وهناك اختلاف بين المؤرخين في عدد سفراته إلى المشرق للحج و طلب العلم(الخطيب، 2008).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

فخلاصة القول أن الرحلة مظهر من مظاهر الحركة العلمية والثقافية عبر مختلف عصور التاريخ الإسلامي حيث قدّم الرّحالة مساهمات واضحة في التراث العلمي والثقافي الإسلامي في مقدمته الكتب المتنوعة التي نقلت إلى بلاد المغرب وكان لها الدور الفعال في إثراء حلقات الدروس وتنويع مصادرها.

2-أثر الرحلة في إدخال كتب فقهية إلى بلاد المغرب:

قامت شبكة من الصلات الثقافية شملت كل بلاد المغرب والأندلس بين الطلبة والشيوخ وبين الشيوخ صلات مباشرة أو بالمراسلة، فيتبادلون الكتب والرسائل والإجازات (بوشامة، 1991، صفحة 476)،وكان الهدف من السعي إلى لقاء العلماء والاتصال بهم أحيانا لاكتساب مناهج علمية جديدة وطرائق وأساليب متطورة في التعليم والتأليف وحتى تصحيح بعض المناهج الفكرية والتعليمية فيكون الإعجاب والتعلق بأحد العلماء سببا في بقاء التواصل حتى بعد العودة إلى الأوطان عن طريق المراسلة لاستيضاح مشكل أو لاستفتاء أو للمزيد من التعلم و التحصيل(الشاهدي، 1991، صفحة 96)،فبالرحلة العلمية يقع الاضطلاع على التآليف المختلفة بين رجال العلم في المغرب والمشرق والرحلة هي أول سبب لعقد المناظرات بين أساطين العلم وأقطاب الفكر فتتجلى الحقائق وتتسع المعلومات وتتحرر الآراء(الأنصاري، 1967، صفحة ز).

ففي حين نجد نوعا ركز على الجوانب الثقافية حيث أن بعض الرّحالة سجّل ما حصل عليه في دفتر يسمى المشيخة ويطلق الشيخ مجازا على المعلم أو الأستاذ لكبره وعظمته، وأطلقها الأوائل على الجزء الذي يجمع فيه المحدّث أسماء شيوخه ومروياته عنهم ثم صاروا بعد ذلك يطلقون عليه المعجم لما صاروا يفردون أسماء الشيوخ ويرتبونهم على حروف المعجم فكثر استعمال وإطلاق المعاجم مع المشيخات، وأهل الأندلس يستعملون البرنامج أما في القرون الأخيرة فأهل المشرق يقولون إلى الآن الثبت وأهل المغرب يسمونه الفهرسة(الكتاني، 1982، صفحة 67) وهي تعتبر من أبرز الآثار العلمية للرحلات فاتساع التأليف في فن الفهارس والمشيخات والأثبات فهي تأريخ لمسيرتهم العلمية وذكر للعلماء والكتب ومجالس العلم والمناقشات العلمية في مختلف البلدان(الناجي لمين، 2016، صفحة 27) ،وقد وجد الباحثون اليوم في هذه الفهارس تاريخ التعليم والحركة العلمية فهي تلقي الضوء على حالة التعليم والمناهج المتبعة وأحوال العصر وأخبار العلماء(القاسم، 2003، صفحة 50).

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

كما احتفى أهل العلم في الغرب الإسلامي بتراث المشارقة وحرصوا على نقل معارفه الشرعية واللغوية والتاريخية والأدبية وسهروا على حفظه رواية ودراية وعنوا بخدمته نساخة وشرحا وعكفوا على إقرائه وتدريسه حتى إن بعض هذا التراث لم يعرفه أهل المشرق إلا في خزائن أهل المغرب من ذلك كتاب أخبار مكة لأبي عبد الله محمد بن إسحاق الفاكهي وكتاب صفة جزيرة العرب لمؤرخ اليمن أبي محمد الحسن بن يعقوب الهمذاني وكتاب العرجان والبرصان والعميان لأبي عثمان الجاحظ(الواراكلي، 2013، صفحة 127)،هذا الأخير الذي عرفت مؤلفاته احتفاءا كبيرا لدى أهل المغرب في مقدمتها البيان والتبيين وكتاب البخلاء وكتاب التربيع والتدوير (الواراكلي، 2013، صفحة 129) ،ونشير هنا إلى أن أول من لقي الجاحظ من أهل المغرب أندلسي اسمه أبو خلف سلام بن زيد وفي نفس الوقت اعتنى بمؤلفات الجاحظ أمراء الأندلس وتداولوها في حين نهى بعض الفقهاء والمحدثين عن قراءتها لما فيها من نزعة عقدية اعتزالية(الواراكلي، 2013، الصفحات 130-133)

ومن أبرز نتائج الرحلات العلمية في الثغور الأندلسية جلب كتاب العين للخليل بن احمد الفراهيدي بعد رحلة الأديب قاسم بن ثابت السرقسطي مؤلف كتاب غريب الحديث توفي سنة 302هـ/914م(الحميدي، 2008، صفحة 331)، ورسائل إخوان الصفا التي أدخلها إلى الأندلس عمر بن عبد الرحمن بن احمد السرقسطي بعد عودته من رحلته إلى المشرق (العتابي، 2016، صفحة 85)هذا إلى جانب إدخال كتب فقهية كان لها الأثر البارز في تطور الدرس الفقهي في بلاد المغرب الإسلامي في مقدمتها جامع الأمهات أو المختصر الفرعي لابن الحاجب ومختصر خليل بن إسحاق المصري.

3-دور الرحلة في تثبيت المرجعية الفقهية في بلاد المغرب خلال القرنين السابع والثامن الهجريين/13و14م:

إن إرهاصات الثقافة العربية الإسلامية في بلاد المغرب بدأت منذ أول أيام الفتح وما زاد في أهميتها أن عددا كبيرا من الجند الفاتحين كانوا من أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم- ومن بينهم كتاب الوحي وحفظة القرآن الكريم والرواة عن رسول الله —صلى الله عليه وسلم-(التليسي، 2003، صفحة 60).

ومنذ أواسط القرن الثاني هجري بدأت المذاهب الإسلامية تعرف طريقها إلى المغرب، وازداد انتشارها في النصف الأخير منه، وتحدثت كتب التاريخ والطبقات عن العديد من الطلبة المغاربة الذين ارتحلوا إلى

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

المشرق وتتلمذوا على الإمام مالك وأخذوا عنه مباشرة، فلما عادوا إلى بلدانهم نشروا علمه وفقهه بين الناس بالتدريس والفتيا والقضاء والشورى وغيرها من وظائف الدولة فالتزموا مذهبه في الفروع والأصول والسلوك وترسموا مذهبه في التأليف وطريقته في الاستنباط والبحث(الجيدي، 1993، الصفحات 15-16)

كما أن المصادر التاريخية تثبت أن المذاهب الإسلامية قد دخلت إلى الأندلس مع الطلائع الأولى من الفاتحين لها والراحلين منها، والوافدين عليها وذلك ابتداء من القرن الثاني الهجري وما تلاه، واستمرت تتدفق سنوات وقرونا حتى اجتمع منها عندهم ما كان معروفا عند المشارقة، وغدا الأندلسيون يتمذهبون بمختلف المذاهب وتعاملوا معها جميعا وإن بمستويات مختلفة مع بقاء الغلبة للمذهب المالكي(الجيدي، 1993، صفحة 22)، خاصة في عهود بعض الأمراء والحكام الذين أظهروا عنايتهم بالمذهب المالكي، ومثال ذلك الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل (ت 206هـ/ 821 م) الذي حمل الناس على الأخذ بالمذهب المالكي ولا يكون القضاء والفتيا إلا به(الجيدي، 1993، صفحة 36).

وفي هذا يقول المقري: " واعلم أن أهل الأندلس كانوا في القديم على مذهب الأوزاعي وأهل الشام منذ أول الفتح. ففي دولة الحكم بن هاشم بن عبد الرحمان الداخل وهو ثالث الولاة الأندلس من الأمويين انتقلت الفتوى إلى رأي مالك بن أنس وأهل المدينة فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة والأندلس جميعا... "(المقري، 1988، صفحة 230).

ونجد لهذا الموضوع ذكرا عند ابن السماك العاملي حيث قال:"كان أهل الأندلس من حين افتتاحها إلى مدة الخليفة الحكم بن هشام على رأي الأوزاعي ومذهبه...ثم تحولوا عن ذلك إلى رأي مالك بن أنس ومذهب أهل المدينة فانتشر علم مالك ورأيه بقرطبة وغمر بلاد الأندلس"(العاملي، 2004، صفحة 130).

وإذا كانت جل المراكز التعليمية تتموقع في الحواضر ، فان الحركة المذهبية جعلت الحركة التعليمية تمتد إلى الأرياف و البوادي خلال القرن الثاني للهجرة لاسيما مع بداية انتقال و ظهور المذاهب الفقهية و الفرق الإسلامية (سامعي، صفحة 21) .

وعلى العموم، فإن المجتمع المغاربي ظل يحافظ على بساطة معتقداته الدينية وكان حريصا على وحدة مذهبه الديني ويرى أن ذلك عامل منعة وقوة(بوداود، 2003، صفحة 105) وهذا على الرغم من تباين نظرة فقهاء الغرب الإسلامي للمسألة الفقهية خلال العصر الوسيط إذ رغم الإجماع على المذهب المالكي

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الذي كانت من ورائه أسباب تاريخية وسياسية ونفسية فان الاختيار الفقهي لم يكن موحدا، وتشبث العلماء بالمدونة وتهذيب البرادعي والرسالة القيروانية وفي مرحلة لاحقة بالمختصرات وهو ما يعتبر نتيجة مباشرة للحرية المذهبية لكن بقي المذهب المالكي هو المسيطر في ميداني التشريع والعبادات(البوزيدي، 2008، الصفحات 33-34).

فقد شن الفاطميون حربا ضد علماء المالكية منذ دخولهم القيروان وأمعنوا في تعذيبهم وقتلهم ولكن أغلبية هؤلاء بقيت وفية لمبادئ الإسلام الصحيحة ومتمسكة بمذهب مالك كما قاموا بمقاومة الفاطميين وأيدوا كل من يقف في وجههم وبالمقابل كانت الدولة تأخذ أموال وكتب علماء المالكية وتنكل بهم وحتى بأهاليهم(الصالح، 1983، الصفحات 141-149)،وبهذا يمكن القول بغياب الجانب العلمي خلال العهد الفاطمي فقد وصل الأمر إلى التهديد بحد السيف عند تغلب الطرف الأضعف (الصالح، 1983، صفحة 150).

وبعد انهيار النظام الموحدي ساد المذهب المالكي وسجل عودته بقوة إلى جانب غياب نزعات فكرية وفلسفية متطرفة(بوداود، 2003، صفحة 83) وإرجاع الاعتبار للفقهاء بعد أن تعرّض الفقه المالكي ورجاله إلى محن في عهد الموحدين في جو طبعه التهديد والزجر لبعض الفقهاء المالكية إلى جانب القتل والسجن والتعذيب ومختلف أنواع الأذى(المغراوي، 2000، الصفحات 27-28)،ومن هنا يمكن أن نفهم أن وحدة المذهب من أهم عوامل شيوع المناظرات وحرية الرأي خاصة أمام السلطة، لكن أكبر ما سجل ضد المذهب المالكي هو إحراق كتبه ومنها: مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ونوادر ابن أبي زيد ومختصره وكتاب التهذيب للبرادعي وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها على حد قول صاحب المعجب(المراكشي، 1963، صفحة 354)، الذي سجل شهادته كونه شاهدا على تلك الأحداث بقوله:" كان يؤتى منها بالأحمال فتوضع ويطلق فيها النار، وتقدم إلى الناس في ترك الاشتغال بعلم الرأي والخوض في شيء منه، وتوعد على ذلك بالعقوبة الشديدة... وكان قصده في الجملة محو مذهب مالك وإزالته من المغرب مرّة واحدة، وحمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث... "(المراكشي، 1963، صفحة 355)، وبهذا انقطع علم الفروع الذي كان أساس الحركة العلمية والفقهية خلال العصر المرابطي و اختفى كثير من العلماء وأصحاب الرأي وهو ما يعتبر نوعا من تحجر الفكر ومصادرة الحريات وتجفيف ينابيع الفكر(سامعي،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

الصفحات 204-205) ،وبالتالي العودة إلى المذهب المالكي في الفقه والمذهب الأشعري في المعتقد والذي لا يحيد عن السنة والجماعة وأهل الحديث لم يكن رغبة شعبية فقط ولكنه كان موقفا رسميا دعا إليه الملوك، وحرصوا على إظهاره أمام العام والخاص(الشاهدي، 1991، صفحة 31).

كما أن الفقهاء اهتموا بتدوين ما أحرق من الكتب الفقهية في العهد الموحدي فكتب المدونة وغيرها من حفظ كثير من العلماء، فعلى سبيل المثال ذكر ابن الأحمر أن:"علي بن عشرين كان حافظا للفقه محصلا محررا له وتفقه عليه فقهاء المغرب وكان يحفظ المدونة ولما أحرقها ملوك الموحدين بالمغرب من بني عبد المؤمن كتبها الفقهاء من حفظه بمدينة فاس عند أول ظهور بني مرين من بني عبد الحق أرسلوا إلى عدوة الأندلس فأتوهم بنسخ منها فقابلوها فوجدوها لا خلاف بينها إلا في فاء أو واو"(الاحمر، 1972، صفحة 19).

وبعد هذه المرحلة طرأ على الساحة العلمية شكل جديد من أشكال التصنيف ألا وهي المختصرات الفقهية التي وبمجرد دخولها إلى المنطقة زاحمت المدونة الكبرى لابن القاسم وتهذيب البرادعي وغيرها من أمهات الكتب بل ومسارعة بعض الفقهاء لشرحها وتدريسها في حلقات دروسهم (الناجي لمين، 2016، صفحة 31)،في حين نجد أن هناك من العلماء من عارض هذا الصنف من المؤلفات التي شكلت موضوع نقاش بين أكبر علماء العصر وقد صورها لنا القاضي أبو عبد الله محمد المقري نقلا عن شيخه أبي عبد الله إبراهيم الآبلي بقوله: "إنما أفسد العلم كثرة التآليف"(الونشريسي، 1983، الصفحات 479-480)، وهو الموضوع الذي عقد له ابن خلدون فصلا في مقدمته في أن كثرة التأليف في العلوم عائقة عن التحصيل :" ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم "(خلدون ع.، 2007، صفحة 578).

فالتآليف الرديئة التي غمرت الحياة الثقافية ساهمت في إفساد العلم الشرعي بصفة خاصة، والابتعاد عن استمداده من مصادره الأساسية، وأمام قصور الهمم عن الاجتهاد ركن الناس إلى التقليد والاقتصار على النقل عمن تقدم، وانصرفوا لشرح كتب المتقدمين وتفهمها ثم اختصارها(الثعالبي، 1916، صفحة 2)؛وقد لقي هذا الأسلوب (الاختصار) معارضة شديدة من قبل العديد من العلماء يقول القاضي أبو عبد الله المقري:" ولقد استباح الناس النقل من المختصرات الغريبة أربابها ونسبوا ظواهر ما فيها لأمهاتها "(الونشريسي،

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

1983، الصفحات 479-480) وعلى هذا الموقف العلامة أبو العباس أحمد القباب في حكايته المشهورة مع ابن عرفة حول منهجية تأليفه للمختصر الفقهي وقوله: "ما صنعت شيئا...لأنه لا يفهمه المبتدئ ولا يحتاجه المنتهي"(التنبكتي، 2004، صفحة 41) ،وذهب إلى هذا الرأي العديد من العلماء(قبول، 2006، الصفحات 65-77) كان لكل منهم رؤيته وأسبابه لرفضه الاختصار كمنهج في التأليف.

وإذا كانت مواقف أولئك العلماء من الاختصار في العلم الشرعي فقط فإن اعتراض ابن خلدون أشمل وأوسع، فهو يقف موقف الرفض لمنهج الاختصار في كل العلوم(قبول، 2006، صفحة 72)، ويرى أنها طريقة مخلة بالتعليم ويقرر أنه " ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء في العلوم، يولعون بها ويدونون منها برنامجا مختصرا في كل علم يشتمل على حصر مسائله وأدلتها باختصار في الألفاظ وحشو القليل منها بالمعاني الكثيرة، وصار ذلك مخلا بالبلاغة وعسيرا على الفهم "(خلدون ع.، 2007، الصفحات 582-583)فابن خلدون إلى جانب رفضه للاختصار كطريقة للتأليف: فهو أشد استنكارا لمن يعمد إلى جعل تلك المختصرات في العلوم هي المقررات الأساسية في الدراسة لأخذ علم ما، " وهو فساد في التعليم وفيه إخلال بالتحصيل، وذلك لأن فيه تخليطا على المبتدئ بإلقاء الغايات من العلم عليه، وهو لم يساعد لقبولها بعد "(خلدون ع.، 2007، صفحة 583).

لكن هذا لا ينفي وجود إيجابيات لاختصار بعض الكتب المطولة وجعلها مشكاة للطالب يستعين بها في دراسته(قبول، 2006، الصفحات 78-83)،وفي نفس الوقت هناك من اعتبرها جهود علماء أفنوا حياتهم في تأسيسها فلا حق لنا بالقول أن اللاحق منهم اختصر عن سابقه فلكل شخصيته(قبول، 2006، صفحة 141) .وفي مقدمة تلك المختصرات نجد كتاب جامع الأمهات لابن الحاجب الذي تزاحم العلماء في شرحه وتدريسه بمجرد دخوله إلى بلاد المغرب و ادخل بعده مختصر الشيخ خليل الذي عكف الناس على تحصيله وهو شرح على ابن الحاجب وانصبت الجهود عليه تدريسا وحفظا وشرحا(التنبكتي، 2004، صفحة 198).

خاتمة:

من حصاد الفقرات السابقة يمكن القول أن بلاد المغرب الإسلامي توفرت على مجموعة من العوامل أهلتها لأن تكون قبلة لطلبة العلم كمقيمين أو عابري سبيل فالمشرق الإسلامي كان دائما مطمح المغاربة

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

والأندلسيين وهو الأمر الذي نشط الرحلات بكل مقاصدها وأهدافها وما نتج تلك الرحلات من ايجابيات على الحياة الفكرية في مقدمتها المذهب المالكي الذي استفاد منها بإدخال عدة مؤلفات سرعان ما احتلت مكانتها في حلقات الدرس المغربية وتلاميذ ارتحلوا وتتلمذوا على أئمة المذهب المالكي وساهموا في نقله وترسيخه والدفاع عنه في بلاد المغرب في وجه التيارات الدخيلة على مر العصور.

قائمة المصادر والمراجع:

المصادر:

1- ابن الاحمر اسماعيل، *بيوتات فاس الكبرى* ،دار المنصور،فاس ، 1972.
2- الأنصاري ،أبو عبد الله محمد، *فهرست الرصاع* ،المكتبة العتيقة، تونس ،1967.
3- التنبكتي احمد بابا، *كفاية المحتاج لمعرفة من ليس في الديباج* ، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة،2004.
4- الحميدي أبو عبد الله محمد بن أبي نصر، *جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس*، القاهرة،الهيئة المصرية العامة للكتاب،2008.
5- الخطيب أبو عبد الله محمد بن مرزوق، *المناقب المرزوقية*، مطبعة النجاح الجديدة ،الدار البيضاء ،2008.
6- ابن خلدون عبد الرحمن ، *مقدمة ابن خلدون* ، دار الفكر، بيروت ،2007.
7- ابن خلدون يحي ،*بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد* ، وزارة الثقافة ،الجزائر،2007.
8- ابن سماك العاملي أبو القاسم محمد بن أبي العلاء، *الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة*، مكتبة الثقافة الدينية ،القاهرة،2004.
9- ابن فرحون، *نيل الابتهاج بتطريز الديباج* ،مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2004.
10- المراكشي عبد الواحد، *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*،لجنة احياء التراث الاسلامي ،القاهرة 1963.
11- المقري أبو العباس، *نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب*، دار صادر، بيروت ،1988.
12- الونشريسي.أبو العباس احمد، *المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى علماء افريقية والأندلس والمغرب*، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، الرباط،1983.

المراجع :

13- بوداود عبيد ،*ظاهرة التصوف في المغرب الأوسط مابين القرنين السابع والتاسه الهجريين(ق13-15م)*، دار الغرب ،وهران ،2003.
14- التازي عبد الهادي، *رحلة الرحلات مكة في مائة رحلة مغربية ورحلة*، مؤسسة الفرقان للثرات الاسلامي ،الرياض ،2005.
15- التليسي بشير رمضان، *الاتجاهات الثقافية في بلاد المغرب الاسلامي خلال القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي*،دار المدار الاسلامي، بيروت ،2003.
16- الجيدي عمر ،*مباحث في المذهب المالكي بالمغرب*ن مطبعة المعارف الجديدة، الرباط ،1993.

ISSN/2353-0197 EISSN/2676-2102

17- الحجوي الثعالبي محمد بن الحسن ،*الفكر السامي في تاريخ الفكر الاسلامي*، تونس ،مطبعة النهضة،1916.
18- زيادة.نقولا ، *الجغرافية والرحلات عند العرب*،دار الكتاب اللبناني،بيروت،1962.
19- سامعي اسماعيل، *قضايا تاريخية في تاريخ المغرب الاسلامي*، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
20- سعد الله أبو القاسم، *بحوث في التاريخ العربي الاسلامي*، دار الغرب الاسلامي.،بيروت ،2003.
21- الشاهدي الحسن، *أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني*، منشورات عكاظ ،الرباط، 1991.
22- العتابي أريج كريم حمد، *الحياة العلمية في الثغور الشمالية الأندلسية المجاورة للممالك النصرانية (95-484ه/713-1092م)*، دار غيداء،الأردن ، 2016.
23- قبول أبو سليمان عبد الكريم، *الاختصار والمختصرات في المذهب المالكي*، دار الفجر، الجزائر، 2006.
24- الكتاني عبد الحي بن عبد الكبير ، *فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعجم والمشيخات والمسلسلات* ، دار الغرب الاسلامي، بيروت ، 1982.
25- مرمول محمد الصالح، *السياسة الداخلية للخلافة الفاطمية في بلاد المغرب الاسلامي*، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ،1983.
26- الناجي لمين، *علماء المغربين الأقصى والأوسط المكية وآثارهما العلمية خلال القرنين السابع والثامن الهجريين،دار الكلمة*، القاهرة، 2016.
27- نواب عواطف محمد يوسف ، *الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والتاسع الهجريين*، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض ،1996 .
28- الواراكلي حسن، *مباحث في تراث الغرب الاسلامي*، مركز الدراسات والأبحاث واحياء التراث، الرباط ،2013.

المذكرات والأطروحات:

29- بوشامة عاشور ،*علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس (626-981ه/1228-1573م) رسالة ماجستير في التاريخ الاسلامي،قسم التاريخ،جامعة* القاهرة،1991.
30- البوزيدي احمد ، *العلماء والسلطة والمجتمع بالمغرب المريني، أطروحة دكتوراه في التاريخ*،كلية الاداب والعلوم الانسانية،فاس ،2008.
31- المشهداني.علياء هاشم ذنون محمد، *فقهاء المالكية دراسة في علاقاتهم العلمية في الأندلس والمغرب في منتصف القرن السادس للهجرة /الثاني عشر للميلاد،اطروحة دكتوراه في فلسفة التاريخ الاسلامي،جامعة*، الموصل،2003.

المقالات:

32- المغراوي محمد :"تطور علاقة السلطة الموحدية بفقهاء المذهب المالكي الى عهد يعقوب المنصور"في مجلة ***آفاق الثقافة والتراث*** ، تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد ، ،العدد31،أكتوبر الامارات العربية المتحدة،ص-ص24-33.
33- .مبخوت بودواية وهوارية بكاي،العلاقات الثقافية بين الدولتين الزيانية والمرينية خلال القرنين 7-9ه، من الموقع: www.Fastat.com تاريخ الاضطلاع: 25 جمادي 1431هـ/10 ماي 2010م.